بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية به ترقى

القَسَم

من كتاب (الأساس والتنوير
في أصول التفسير)

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن والدراسات القرآنية

الأصل الثامن: القَسَم

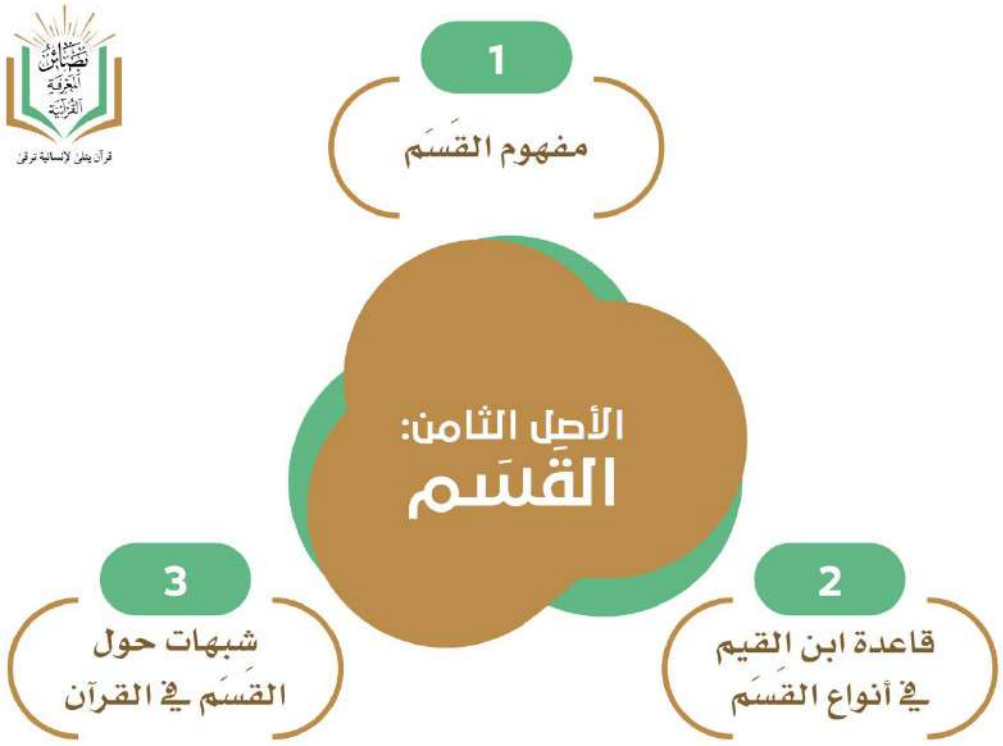

الأساس والتنوير في أصول التفسير أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

ويتضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم القَسَم.

المبحث الثاني: قاعدة ابن القيم ﵀ في أنواع القَسَم.

المبحث الثالث: شبهات حول القَسَم في القرآن.

يكثر القَسَم في القرآن المجيد.. ألا يجدر بنا أن ننظر في بعض المسائل المتعلقة به لنقرب من الفهم الأعمق لكلام ربنا جل ذكره؟

المبحث الأول: مفهوم القَسَم

ما تعريف القَسَم؟

القَسَم في أصله القطع، ومنه قسمت الشيء وقسمته[١]، والقطع يستعمل لنفي الريب والشبهة، ولذلك شواهد كالصريمة، والجزم، والقول الفصل، والإبانة والصدع، والقطع فهذا هو

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ٢٠١٠).

الأصل، ثم اختص القسم من بين هذه الألفاظ بشدة الفصل بالقول. واستعماله من باب الإفعال لخاصية المبالغة كقولهم: (أسفر الصبح)[١]، هكذا قال الفراهي ﵀.

المبحث الثاني: قاعدة ابن القيم ﵀ في أنواع القَسَم

ويمكن أن تقرر بالاستقراء ما قرره ابن القيم ﵀ من قاعدة في أنواع القَسَم:

قاعدة: أقسام القرآن كلها بالله وصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته[٢].

المبحث الثالث: شبهات حول القَسَم في القرآن

اذكر أبرز الشبهات حول القَسَم في القرآن الكريم.

الجواب: هناك شبهات ذكرها الفراهي ﵀ حول القَسَم في القرآن وردَّ عليها[٣]:

---

(١) إمعان في أقسام القرآن (ص: ٢٠).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١).

(٣) ينظر: إمعان في أقسام القرآن (ص: ٥ وما بعدها).

من أبرز من تكلم عن أصول المسائل المتعلقة بالقَسَم في القرآن الإمام الفراهي ﵀ في كتابه: (إمعان في أقَسام القرآن)، وقد مال إلى الكلام عن جانبٍ حريٍّ بتدارسه هو الشبهات الثلاث التي يوردها الشانئون ويتبعهم السماعون لهم، وهي:

أولاً: الشبهات الثلاث:

الشبهة الأولى: هل يليق القَسَم بالله ﷻ؟

القَسَم نفسه لا يليق بجلال الله ﷻ ربنا؛ فإن الذي يحلف على قوله يهين نفسه، ويضعها موضعَ مَنْ لا معوَّلَ على حديثه، وقد جاء في القرآن: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠].

الشبهة الثانية: هل في القَسَم فائدة حيث جاء في أمور تتطلب البرهان لا القَسَم؟

القَسَم في القرآن جاء على أمور مهمة، كالمعاد والتوحيد والرسالة. ولا فائدة فيها للقَسَم، لا للمنكر بها؛ فإنه يطلب الدليل والبرهان، والقَسَم ليس فيه شيء منه، ولا للمؤمن فإنه قد آمن بها.

الشبهة الثالثة: كيف يليق أن يقسم الله سبحانه بالمخلوقات؟

القَسَم يكون بالذي عظم وجلَّ، وقد قال النبي ﷺ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»(١)، فنهى عن القسم بغير الله ﷻ، فكيف يليق بجلال ربنا أن يقسم بالمخلوق ولا سيما بأشياء مثل التين والزيتون؟

وقد تسأل: كيف رد الفراهي ﵀ على هذه الشبه الثلاث؟

ثانيًا: الرد والجواب على الشبهات الثلاث:

وأخبر الفراهي ﵀ برد الرازي ﵀ في سورتي الصافات والذاريات وضَعَّفه، وفعل ذلك مع ابن القيم ﵀ إلا أنه حسَّن طريقته أكثر من الرازي، وقال: "ومع ذلك ندعو أن يجازيهم الله بما اجتهدوا في الذب عن بيضة الحق وذماره، كما أدعو أن يجعلني من حزب الحق وأنصاره"(٢).

ويتلخص جهده البليغ، وحجته البالغة في الآتي:

أولاً: الجواب الإجمالي(٣):

ترجيح أن الأقسام دلالات، وذلك لا يقتضي تعظيم المقسم به، بل ادعاء التعظيم دائمًا هو الظن الباطل الذي صار حجابًا على فهم أقسام القرآن، ومنشأ للشبهات، وهنا أورد تاريخ القَسَم عند الأمم حيث احتاج المرء لتأكيد أقواله، وجعلوا القَسَم يمينًا لأن اليد التزمت به، واستدرك على المترجمين من اللغة العبرية بعض عثراتهم.

---

(١) البخاري (٢٦٧٩).

(٢) إمعان في أقسام القرآن (ص: ٥).

(٣) إمعان في أقسام القرآن (ص: ١٣، ١٤).

ثانيًا: بين أنه لا يلزم وجود المقسم به[١]:

فكلمة قَسَم أو ما قام مقامها كافية لبيان التأكيد، واستشهد على هذا بعدد من الأبيات، كقول ريطة السلمية[٢]:

فأقسمت لا أنفكُّ أُحْدِرُ عَبْرَةً تجود بها العينان مني لتسجما

وفي القرآن: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾ [الأعراف: ٤٩]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ [الأعراف: ٢١-٢٢]، ولم ينف احتمال أن يكون المقسم به مقدرًا لكنه أعمل الظاهر.

ثالثًا: بيان أصل معنى القَسَم إذا كان فيه مقسم به[٣]:

القَسَم بشيء ضُم للمقسم به إلى المقسم كالشاهد على محتواه، ولذلك كثر استعمال الواو قبله وكذلك الباء، والتاء مقلوبة من الواو، فهذه الحروف للمعية ولضم الشيء بالشيء.

ويؤيد هذا التأويل ما علمت من تاريخ القَسَم وطرقه. فإنهم لم يقسموا إلا على رؤوس الأشهاد، ليكونوا شاهدين على ثقة المقسم بعدم الكذب، كما قال تعالى عن ميثاق النبيين: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢].

رابعًا: ذكر المقسم به للتأكيد وللإكرام وبيان عزة المقسم ومنعته:

تحصل أن القَسَم للتأكيد على الصدق في القول، فإذا ذكر معه مقسم فلزيادة التأكيد، وقد يكون ذكر المقسم لإكرام المقسم به، والمتكلم، والمخاطب، ولذلك كثر قسم العرب بقولهم: لعمري، أي أنا أخاطر على هذا القول بحياتي، كما قالت ريطة بنت العباس السلمي[٤]:

لعمري وما عمري عليَّ بهين لنعم الفتى أردیتم آل خثعما

ثم تجاوزوه إلى قولهم (لعمرك) أو ما يشبهه لما فيه من إكرام المخاطب ببيان مكانته.

كقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وإذا أضيف إلى المتكلم دل على عزته ومنعته، كأنه قال: إن حياتي وعزي منيع لا يرام. ومن هذه الجهة لا ينبغي هذا القسم لعباد الله الخاشعين المتواضعين. ولعل المسيح أشار إلى هذا الأمر حيث قال عليه السلام فيما نهى عن الحلف مطلقًا: (لا تحلف برأسك؛ لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء)، وبعض وجوه القسم دعاء بالسوء على الحانث كأن الحالف قال: إن كنت كاذبًا أُبِيدَ عمري، وأهينت عزتي.

---

(١) إمعان في أقسام القرآن (ص: ١٩).

(٢) البيت للخنساء في ديوانها. ديوان الخنساء (ص: ١٠٧).

(٣) إمعان في أقسام القرآن (ص: ٢٣).

(٤) البيت للخنساء في ديوانها. ديوان الخنساء (ص: ١٠٧).

وهذا النوع من القَسَم لا يكون إلا بإضافة المقسم به، إما إلى المتكلم أو إلى المخاطب، ولا يكون إلا بألفاظه الخاصة التي عرفت مكانتها عند المتكلم، فالقسم بالذاريات، والعاديات، والخنس الجوار الكنس، وأمثالها لا يكون من هذا النوع.

وهذه الأقسام ليست من جهد أيمانهم، وعلى الأكثر تستعمل لمحض التأكيد بمعنى أقسمت.

خامسًا: القَسَم لشدة إيفاء العرب وتعلقهم به، وللإشهاد على وجه التقديس للمقسم به:

مبالغة الاستيثاق للمعاهدة لا يكون إلا بمشهد معابدهم، ليصبغوا عليه الصبغة الدينية، ويوقفوا عليه مصيرهم أمام ربهم في الدنيا والآخرة، والعرب كانوا في جاهليتهم أشد الأمم بأسًا وألدهم خصامًا، كما أنهم أبرهم ميثاقًا وأوفاهم ذمامًا، وكانت الكعبة أعظم معاهدهم، لذا التزموا بالأشهر الحرم، حتى إنهم سموا مكة صلاحًا وأم الرحم، ومن شركهم ربما أقسموا عند أنصابهم التي ذبحوا عليها لشفعائهم عند الله الأكبر.

وكانوا يقسمون: إما بإهراق القربان، أو بمسح الكعبة، كما ستعلم مما ذكروا في أشعارهم، أو بغمسهم أيديهم في عطر ومسح الكعبة بها، كما ترى في حلف المطيبين، قال زهير بن أبي سلمى[(١)]:

فأقسمت بالبيت الذي طاف ... رجال بنوه من قريش وجرهمِ

وقال الحارث بن عباد[(٢)]:

كلا ورب الراقصات إلى منى ... كلا ورب الحل والإحرامِ

وقال النابغة الذبياني[(٣)]:

فلا لَعْمرُ الذي مسَّحتُ كعبته ... وما هُريق على الأنصاب من

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرِ تمسحُها ... ركبانَ مكة بين الغيل والسعَدِ

ما قلت من سيء مما أتيت به ... إذًا فلا رَفَعَتْ سوطي إلي يدي

إذا فعاقبني ربي معاقبة ... قرتْ بها عينُ من يأتيك بالفَنَدِ

قال عدي بن زيد، وقد تنصر في الجاهلية[(٤)]:

سعى الأعداء لا يألون شرًا ... عليك ورب مكة والصليبِ

وقال الأخطل، وكان مجاهرًا بنصرانيته[(٥)]:

إني حلفت برب الراقصات وما ... أضحى بمكة من حجب وأستارِ

---

(١) المعلقات العشر (ص: ٢٢).

(٢) ديوان الحارث بن عباد (ص: ٢٢٨).

(٣) المعلقات العشر (ص: ١٦٧، ١٧٨)، وفيه: (ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه) بدلًا من (ما قلت من سيء مما أتيت به)، وفيه أيضًا : (قرت بها عين من يأتيك بالحَسَد) بدلًا من (قرت بها عين من يأتيك بالفند).

(٤) ديوان عدي بن زيد (ص: ٣٨).

(٥) ديوان الأخطل (ص: ١٤٣، ١٤٤).

وبالهـــديّ إذا احمـــرَّت مـــذارعها في يـــوم نســـك وتشـــريق وتَنحـــارِ

وذكر الفراهي رحمه الله أن إشهاد الله ﷻ برفع اليد شريعة ماضية نجدها عند إبراهيم عليه السلام، كما في سفر التكوين، كما نجدها في الإسلام، فقد كثرت الأحاديث التي رفع فيها النبي ﷺ يده يشهد ربه تعالى ذكره، فبعد ما أخبرهم النبي ﷺ بتبعات الغلول رفع ﷺ يديه إلى السماء، وقال: «اللهم هل بلغت» ثلاث مرات[١]. فهذا رفع اليد كان لإشهاد الله تعالى على ما قال، كأنه قال: اللهم اشهد.

وهكذا نرى إشهاد الله ﷻ برفع اليد إلى السماء في قصة إبراهيم عليه السلام. جاء في سفر التكوين ١٤:٢٢:

«فقال إبرام (إبراهيم) لملك سدوم رفعت يدي إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض».

١٤: ٢٣ «لا آخذن لا خيطًا ولا شراك نعل، ولا من كل ما هو لك».

سادسًا: القَسَم على وجه الاستدلال بالمقسم به[٢]:

كانوا يقسمون بالشهادة من أنفسهم أو بالشهادة بالله تعالى، وإذ كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات، كثر القَسَم بها، ولذلك ظن من قَلَّ التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الإشهاد لا يكون إلا بالمعبود وعلى جهة التعظيم، وتجدهم ربما أشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولا عظموها، وإنما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهدًا على أقوالهم، كقول عنترة[٣]:

والخيـــل تعلـــم والفـــوارس أنـــني فرَّقـــتُ جمعهـــم بطعنـــة فيصـــلِ

ومن هذا الأسلوب ما قال الفضل بن عيسى بن أبان في وعظه: «سل الأرض، فقل: من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارًا، أجابتك اعتبارًا»[٤].

ولعل هذا الكلام مأخوذ من صحف أيوب عليه السلام، قال ١٢:٧ – ١٠: «٧ فاسأل البهائم فتعلمك، وطيور السماء فتخبرك»، «٨ أو كلم الأرض فتجيبك، ويحثك سمك البحر». «٩ من لا يعلم من كل هؤلاء أن يد الرب صنعت هذا». «١٠الذي بيده نفس كل حي وروح كل إنسي».

ومنها قسم الهجرس حين قتل جساسًا قاتل أبيه، فقال:

«وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه، لا يترك الرجل قاتل أبيه، وهو ينظر إليه»[٥].

---

(١) البخاري (٦٩٧٩)، مسلم (٤٧٦٦).

(٢) إمعان في أقسام القرآن (ص: ٣٢– ٣٦).

(٣) ديوان عنترة (ص: ٢٥٠).

(٤) المجالسة وجواهر العلم (٤/٥١٠).

(٥) حاشية الطيبي على الكشاف (٣/٢١٨).

أسئلة تقويمية:

س١: ما تعريف القَسَم؟

س٢: ما الذي قرره ابن القيم ﵀ في أنواع القَسَم؟

س٣: ما الشبه التي ذكرها الإمام الفراهي ﵀ حول القَسَم؟

س٤: كيف رد الإمام الفراهي ﵀ على هذه الشبه؟